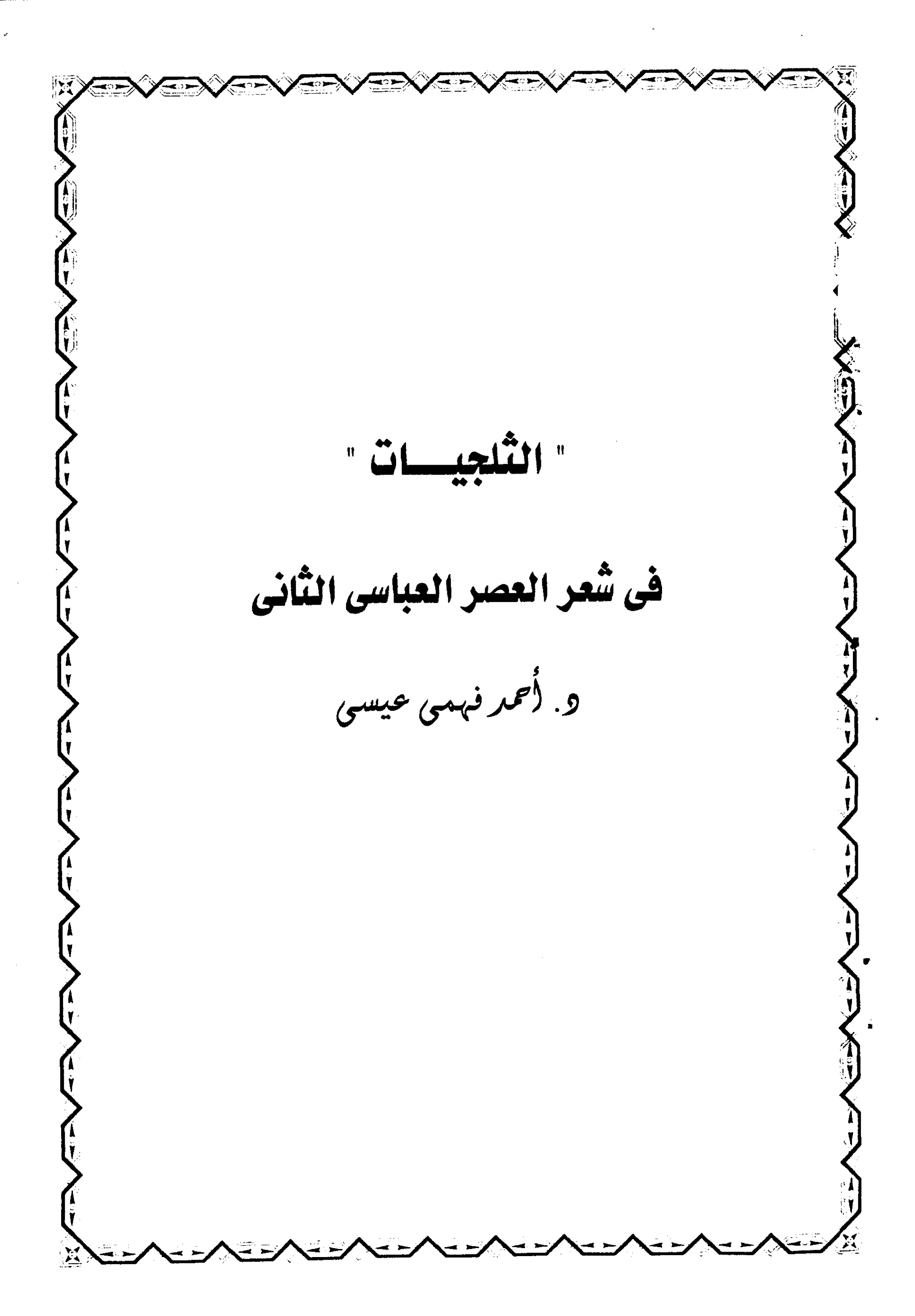


" الثلجيـــات "

فى شعر العصر العباسى الثانى

د. أحمد فهمي عيسى

تمهيد :

الثلج : ما جمد من الماء ، (ج) : ثلوج [1] ، وثلجتنا السماءُ : ألقت علينا الثلج ، ومنه يقال : ثُلِجت الأرض بالبناء للمفعول فهي مثلوجة [2] ، ونصل ثُلاجى : شديد البياض ، وجبل الثلج بدمشق ، وثلجت نفسي : اطمأنت، والمثلوج الفؤاد : البليد ، والثلاج ، بائع الثلج ، والمثلجة موضعه [3] .

فالثلج ماء متجمّد يتكون عندما تنخفض درجة حرارة المياه إلى درجة الصفر المئوية على أسطح البحيرات ، والأنهار ، والشوارع والأرصفة المبتلة، ويعد الجليد ، والمطر الثلجى، والصقيع ، والبَرَد صوراً من الثلج . ومن أمثلة الثلج أيضاً كتل الثلج الموجودة فى الأنهار [4] .

ويطلق على الثلج بعض المسميّات الأخرى والتى لا تطلق على المصنوع منه مثل : البَرَدَ ، والجَمد ، والجليد والصقيع .

فالبَرَد : بفتحتين شىء ينزل من السحاب يُشبُه الحصى ، ويسمى حَبَّ الغمام وحَبَّ المُزن [5] .

والجَمَد : محرَّكة : الثلج ، وجمد الماءُ ، وكل سائل ، ضد ذاب فهو جامدٌ وجَمْدُ ، أو ما جمد من الماء فصار ثلجا [1] .

---

[1] – المعجم الوسيط : مادة : ثلج .

[2] – المصباح المنير : ثلج .

[3] – القاموس المحيط : ثلج .

[4] – الموسوعة العربية العالمية ، ص٨ ، ص٤٧ ، السعودية ، الطبعة الأولى .

[5] – المصباح المنير (بَرَد) .

والجليد : ما يسقط على الأرض من النَّدَى ، فيجمد ، والأرض مَجْلُودة [2] .

والصقيع : الساقط من السماء بالليل كأنّه ثلج [3] ، أو هـو الجليـد المحـرق للنبات[4].

ويستخدم الثلج فى أشياء كثيرة فبالإضافة إلى تبريد الماء فـى الجـو شديد الحرارة ، " يستخدم ملايين الناس الثلج يومياً فى تبريد أنواع عديدة من المشروبات ، وتستخدم مصـانع الأغذيـة واللحـوم والـدواجن والأسـماك والخضراوات ، والفاكهة الثلج أثناء شحنها وتخزينها لهذه الأنواع لحمايتها من الفساد ، وتبطئ درجة حرارة الثلج المنخفضة من نمو البكتريا التـى يمكنهـا إفساد هذه المنتجات [5] .

وفى العصر العباسى كان الماء المبّرد يمثل متعة وأهمية لدى النـاس يقول آدم متز [6] : " وكان الماء المثلج أكبر لذة للناس فى فصـل الصـيف ، ويحكى أنه لما ولى ابن الفرات الوزارة، وكان اليوم الذى خُلع عليه فيه شديد الحرّ ، سُقى فى داره أربعون ألف رطل من الثلج فى يوم وليلة . بل وصـل من أهمية الثلج إلى أنهم كانوا يتراهنون عليه فى ألعابهم فى فصل الصـيف . فقد جاء فى الديارات للشابشتى [7] ، " قال أبو العيناء : دخلت على أبى أحمـد

---

[1] – المعجم الوسيد (جمد) .

[2] – القاموس المحيط : (جلد) .

[3] – نفسه (صقع) .

[4] – المصباح المنير : (صقع) .

[5]– الموسوعة العربية العالمية ، جـ٨ ، ص ٤٧ .

[6]– الحضارة الإسلامية فى القران الرابع الهجرى : جـ٥ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

[7] – الديارات للشابشتى ، ص ٨٧ ، ٨٨ . ، والنَدَب : الرهان ، والمراد هنا أن من غلـب أخذ ما تراهنوا عليه .

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان يوماً صائفاً ، وقوم بين يديه يلعبون الشطرنج . قال : يا أبا عبد الله ، إنا نلعب فى نَدَب إلى أن يدرك طعامنا ، ففى أى الحزبين تحب أن تكون ؟ قلت : فى حزب الأمير ، أيده الله ، فإنه أعلى وأبهى ، فغُلبنا ، فقال أبو أحمد : يا أبا عبد الله ، قد غُلبنا ! وقد أصابك بقسطك عشرون رطلاً ثلجاً . فقلت : أحضره أيها الأمير . ووثبت ، فصرت إلى أبى العباس بن ثوابة فأقرأته السلام من أبى أحمد ، وقلت له : إنه يتشوقك، وأراد أن يكتب إليك رقعة ، فخاف مراوغتك ، فوجهنى رسولاً ، وحملنى رسالة ، ولسنا نفترق إلا بحضرته ! فركب معى ، وجئنا فلما وقفت بين يديه ، قلت : أيها الأمير ، قد جئتك بجبل همذان ثلجاً ، فاقتض منه ما قُمرنا ، والعب مع أصحابك فى الباقى ! فضحك حتى استلقى ! وسأل ابن ثوابة عن القصة ، فعرّف الخبر فلما وقف عليها ، شتمنى وانصرف " .

ولم يتوقف الأمر عند استخدام الثلج فى تبريد الماء فقط ، بل كانوا يستخدمونه فى الاستشفاء من بعض العلل والأمراض . فقد حكى التنوخى فى نشوار المحاضرة كيف أثرى سليمان الثلاج فى بغداد من ثمن خمسة أرطال ثلجاً . يقول [1] " حدثنا أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن بن جعفر الشيرازى الكاتب ، قال : حدثنى ابن سليمان الثلاّج قال : قال لى أبى : كان أصل نعمتى من ثمن خمسة أرطال ثلجاً ، وذلك أنّه عزّ الثلج فى بعض السنين فى بغداد ، وقلّ، وكان عندى منه شىء بعته ، وبقى منه خمسة أرطال .

[1] - نشوار المحاضرة وأخبارُ المذاكرة : للقاضى أبى على المحسن التنوخى ، ت. عبود الشابحى ، جـ١ ، ص ١٢٥ وما بعدها .

فاعتلت (شاجى) جارية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وهو إذ ذاك أمير بغداد ، فطلَبَتْ منه ثلجاً ، فلم يوجد إلاّ عندى . فجاءونى ، فقلت : ما عندى إلاّ رطل واحد ، ولا أبيعه إلاّ بخمسة آلاف درهم ، وكنت قد عرفت الصورة .

فلم يجسر الوكيل على شراء ذلك ، ورجع يستأذن عبيد الله ، وكانت (شاجى) بمنزلة روحه ، وهى تتضوّر على الثلج ، وتلحُّ فى طلبه .

فشتمه عبيد الله ، وقال : امض واشتره بأىّ ثمن كان ولا تراجعنى فجاءنى ، فقال : خذ خمسة آلاف درهم ، وهات الرطل . فقلت : لا أبيعك إيّاه إلاّ بعشرة آلاف درهم ، فلم يجسر على الرجوع للاستئذان ، فأعطانى عشرة آلاف درهم ، وأخذ الرطل .

وسقيت العليلة منه ، فقويت نفسها ، وقالت أريد رطلاً آخر فجاءنى الوكيل بعشرة آلاف درهم ، وقال : هات رطلاً آخر ، إن كان عندك ، فبعت ذلك عليه .

فلما شربته العليلة ، تماثلت ، وجلست ، وطلبت زيادة ، فجاءونى يلتمسون ذلك . فقلت: ما بقى عندى إلاّ رطل واحد ، ولا أبيعه إلاّ بزيادة ، فدارانى وأعطانى عشرة آلاف درهم ، وأخذ رطلاً .

وداخلتنى رغبة فى أن أشرب أنا شيئاً من الثلج ، لأقول إنىّ شربت ثلجاً سعر الرطل منه عشرة آلاف درهم .

وجاءنى الوكيل قرب السحر ، وقال : الله ، الله ، قد والله صلحت العليلة ، وإن شربت شربة أخرى بَرأتْ ، فإن كان عندك منه شىء ، فاحتكم

فى سعره . فقلت له : والله ما عندى إلا رطل واحد ، ولا أبيعه إلا بثلاثين ألفاً. فقال : خذ . فاستحييت من الله أن أبيع رطل ثلج بثلاثين ألفاً ، فقلت : هات عشرين ألفاً ، واعلم إنك إن جئتنى بعدها بملء الأرض ذهباً ، لم تجد عندى شيئاً ، فقد فنى . فأعطانى العشرين ألفاً ، وأخذ الرطل .

فلما شربته (شاجى) ، أفاقت ، واستدعت الطعام ، فأكلت ، وتصدق عبيد الله بمال . ودعانى من غدٍ ، فقال : أنت – بعد الله – رددت حياتى بحياة جاريتى فاحتكم . فقلت : أنا خادم الأمير وعبده . قال : فاستخدمنى فى ثلجه وشرابه ، وكثير من أمر داره . فكانت تلك الدراهم التى جاءتنى جملةً ، أصل نعمتى ، وقويت بما انضاف إليها من الكسب مع عبيد الله ، طول أيامى معه ".

ولم يكن الاهتمام بالثلج فى بغداد وحدها بل كان الثلج يحمل من الشام إلى قصر كافور الإخشيدى بمصر ليستعمل فى تبريد المشروبات ، وكان يدخل إلى دار ابن عمار الوصى على الحاكم بأمر الله والوسيط بينه وبين الناس نصف حمل ثلجاً فى كل يوم ، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، أما مكة والبصرة فلم يكن الثلج ميسوراً ، يقول أبو إسحاق الضابى :

لهف نفسى على المقام ببغدا

د وشربى من ماء كوز بثلج

نحن بالبصرة الذميمة نُسقى

شرّ سُقيا من مائها الأترجىّ

أصفر منكر ثقيل غليظ

خاثرٍ مثل حقنة القولنج

كيف نرضى بشربه وبخير

منه فى كنف أرضنا نستنجى [1]

كما كان الثلج يستخدم فى تلطيف درجة الحراة أيضاً فى فصل الصيف يقول آدم متز [1] " وكان أهل الترف فى ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش ، وكانت عادة الأكاسرة أن يطيّن سقف بيت فى كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالا ، فتوضع حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج الكبار ، فتوضع ما بين أضعافها وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً " .

ونظراً لأهمية الثلج فى حياة الناس فى فصل الصيف كانوا يهتمون بالمحافظة عليه حتى لا يذوب ؛ حيث " كانت حرّاقات دجلة التى يستعملها رجال الدولة فى غدوّهم ورواحهم ، يُعَدّ فيها الثلج ، ويعلقِ عليها الخيش المبلل بالماء ، وكانت ترخى علّى الخيش ستور الكرابيس [2] " .

وكان الثلج من الأشياء القيّمة التى تقدّم كهدايا من علية القوم ، فعندما تولى أبو الحسن بن الفرات الوزارة " حمل إليه المقتدر مالاً وثياباً وطيباً ، وطعاماً وأشربة وثلجاً [3] " .

كما كان علية القوم يخصصون كمية من الثلج لاستعمالاتهم اليومية فمثلاً " كان راتب أبى طاهر وزير عز الدولة من الثلج فى كل يوم ألف رطل[4]" . هذا بالإضافة إلى أن توفير الثلج مع أشياء أخرى ، كان يدخل فى النفقات السنوية للخليفة وغيره ، فمثلاً " ... ومن ذلك : النفقات التى تطلق كل

---

[1] – نفسه ، جـ٢ ، ص ٢١١ .

[2] – الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، جـ٢ ، ص ٢١٢ .

[3] – تحفة الأمراء ، لأبى هلال الصابى ، ص ٣٦ .

[4] – ظهر الإسلام : أحمد أمين ، جـ١ ، ص ١٠٤ .

سنة ومنها : ثمن الأضاحى والثلج ، وما يطلق لصاحب الشرطة تحمل الأعلام فى العيدين . وغيرها ، اثنتين وأربعين ألفاً وسبعة دنانير [1] " .

كما كان يخصص فى ديوان النفقات مجلس يسمى مجلس الإنزال " والذى يجرى فيه كل ما يقام من الإنزال . ومن هذا المجلس يحاسب التجار الذين يقيمون الوظائف من الخبز واللحم والحيوان ، والحلوى والثلج والفاكهة والحطب والزيت ، وغير ذلك من سائر صنوف الإقامات والإنزال [2] " .

أما عن طرق تصنيع الثلج فى العصور القديمة ؛ فمن صوره صورة تسمى " لوح الثلج " ، ويصنع الثلج فى هذه الحالة بصب الماء النقى داخل أوعية معدنية ضخمة فى صورة مستطيلات ذات جوانب وقمة مفتوحة ، وتوضع الأوعية فى محلول ملحى (ماء ملحى) وتتراوح درجة حرارة المحلول بين -١٤ْم و -٨ْم . ويمرر غاز النشادر خلال أنابيب داخل المحلول الملحى ، ويقوم غاز النشادر بدور المبّرد ، وبعد تجمّد الماء النقى داخل الأوعية على صورة ألواحٍ من الثلج ، تقوم الروافع برفع الأوعية من المحلول الملحى ، ثم تغمس الأوعية بعد ذلك فى ماء دافئ لإزالة ألواح الثلج والتى يبلغ وزن الواحد منها حوالى ١٢٦ كجم .

ويمكن تجميد الماء على السطح الخارجى لأسطوانة دوارة ، ويكشط على شكل رقائق صغيرة ، كما يمكن أيضاً تجميد الماء على السطح الداخلى

---

[1] - رسوم دار الخلافة : لأبى الهلال الصابى ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

[2] - كتاب الخراج ، المنزلة الخامسة ، لأبى فرج قدامة بن جعفر ، تحقيق د. طلال جميل غازى ، ص ١٦٩ ، مكتبة الطالب الجامعى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

لأسطوانة مثبّت عليها نتوءات مستوية . ويشبه الثلج المكشوط من هذه الأسطوانة الجليد ، ويضغط الثلج الناتج داخل أوعية صغيرة تسمى القوالب[1]".

وهكذا مثّل الثلج شيئاً مهما فى حياة الناس ، جمالاً واستمتاعاً وشراباً وترفاً حتى إنه عُدَّ من أسباب الليونة فى الحياة وعدم الخشونة " فيحكى عن أحد القواد فى القرن الرابع أنه لمّا جاءت فرقة من الجند بغداد للقيام بغزوة هامة لم يجدهم أهلاً لذلك ؛ لأنهم ، فى رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلّل وسماع القيان [2] " .

ولم يكن الشعراء بمنأى عن الاستمتاع بالثلوج ، رؤية ، وتبريداً وتلطيفاً وشراباً ، وذلك لاتصالهم بالطبقة المترفة من ناحية ، بالإضافة إلى البيئة التى كانت تجود عليهم بالثلوج فى فصل الشتاء وفى بعض فصول السنة وبالذات فى الشام . ولهذا وجدنا ظاهرة جديدة فى الشعر العربى فى العصر العباسى وبالذات فى القرن الرابع ، وما بعده ، تدور حول وصف الثلج أو ما يطلق عليها " بالثلجيات " حيث نجد بعض الشعراء يلتفتون لهذه الظاهرة وبالذات سقوط الثلج أو البَرَد على صفحة الأرض فى فصل الشتاء وما يحدثه ذلك من تغيير فى وجه الأرض ، إذ يبيض وجهها ، أو يسقط على الأشجار فتتداخل الألوان وتتشكل منها منظومة جديدة . بالإضافة إلى البرد الشديد المصاحب لسقوط الثلج والذى يكون مدعاة للجوء للشراب حيث طلب الدفء والسمر أيضاً فتتسع دائرة الألوان ، ألوان الكئوس مع ألوان الشراب ، مع

---

[1] - الموسوعة العربية العالمية ، جـ٨ ، ص ٤٨ .

[2] - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، جـ٢ ، ص ٢١٢ .

الثلج ، مع ألوان الخضرة فيحدث ذلك منظومة جمالية يسـرُ بهـا الإنسـان ويسعد.

ولهذا وجدنا الناس يستخدمون الثلج فيما يدل على الراحة والاطمئنان. فيقال : ثلجت نفسي بمعنى اطمأنت كما أسلفنا .

بعد هذا التمهيد سنحاول أن نتوقف حول النقاط التى أدار عليها الشعراء شعرهم الثلجى ، وهى :

١- وصف الصور الثلجية :

تغيرت طبيعة المجتمع فى العصر العباسى ، حيث انتقل الكثير من الناس من مجتمع البداوة إلى حضارة جديدة ، من مجتمع مغلق يقوم على جنس واحد ، إلى مجتمع مفتوح يقوم على أجناس متعددة ، انتقلوا من خيام متنقلة إلى دور وقصور ومروج وبساتين مستقرة ، انتقلوا من بيئة شحيحة ، يعز فيها المطر ويخاصمها الكلأ ، إلى بيئة جديدة تبكى فيها السماء بدموع لؤلؤية ، على بساط أخضر رسمته الطبيعة بفرشاة فنان مبدع ، مستخدمة أروع الألوان وأبهجها .

لقد تدخلت عناصر طبيعية عدة فى رسم هذه الصورة البيئية الجميلة ، يمثل سقوط الأمطار يد الفنان المبدع فى رسم معالم هذه البيئة ، لأن الأرض تأخذ زينتها وتتزخرف على أثره ، كما أن توفّر الماء يحدث نوعاً من الاستقرار السكانى ومن ثمّ الإبداع الحضارى .

وأحياناً كثيرة لم يكن المطر يسهم فى تدبيج هذا الثوب الأخضر فقط ولكن كان يلبس هذا الثوب عباءة بيضاء نسيجها من ثلج بديع صاف فتحدث زلزلة جمالية ونفسية لدى كل من له عين ترى ، وحس يتأثر .

لم يلتفت الشاعر القديم فى الجزيرة إلى الثلج ، لأن السماء لم تكن تمطر فى الأساس حتى تثلج ، وإن أمطرت فلم تكن تحدث إلا رتوشاً خضراء بسيطة على صفحة الصحراء الممتدة الواسعة . وفى العصر العباسى الأول

قلّ التفات الشعراء إلى الثلج ، لأن الشاعر كان وما زال مدفوعاً فى التعبير بأدواته القديمة كما أن ذوقاً جديداً كان فى طور التشكيل لم يكتمل وتتضح معالمه إلاّ فى العصر العباسى الثانى . حيث وجدنا مجموعة من الشعراء يلتفتون إلى هذه الظاهرة ، ظاهرة الثلجيات " فيبدعون فى وصف الثلج مستخدمين فى وصفه أجمل المعادن الثمينة التى تلائمه وأرق الأزهار التى تشبهه ويشبهها ، فيكونون بذلك صوراً ثمينة لا تبقى إلا فترات زمنية بسيطة ، لأن الشمس عدوها الأول سرعان ما تسلط أشعتها فتبدد ملامح هذه الصورة .

ولهذا اغتنم الشعراء هذه اللحظات الثمينة التى يتكون فيها الثلج فوصفوه ببعض المعادن الثمينة فهو : بلور وهو لؤلؤ وهو در وهو فضة . وكلها أشياء تتفق مع الثلج فى النقاء والبياض .

فإذا كان البلور معدناً " أفضله المستنبط من باطن الأرض : ويكون ساطع البياض ، كثير المائية ، رزينا ، صُلبا ، بحيث يُقدحُ منه النار ويخدشُ كثيرا من الجواهر [1] " فإن الشعراء عندما يصفون الثلج ، ويجعلون منه بلوراً لا فى كل صفاته ولكن فى بياضه الساطع وربما لأنهما لا دخل للإنسان فيهما بل هما من هبات الطبيعة .

فهذا أبو طالب المأمونى يصف الجليد فيجعل منه حجارة من صنع الدهر أى لا خل للإنسان فى تكوينها ، عندما تتساقط تضفى على الجو نوعاً من البرودة التى يحتاجها الإنسان عندما يستعر بنار القيظ كما يرى ، ثم إنها

---

[1] – نخب الذخائر فى أحوال الجواهر : لابن الأكفانى ، ص ٦٦ ، عالم الكتب بيروت لبنان.

تشبه قطع البلور لا فى اللون الأبيض فقط ولكن فى شفافيتها ونقائها وأنها لـم تثقب . يقول [1] :

حجارة من صنيع الـدهر تمتعنـا
ببردها وضـرام الغـيظ يسـتعر
كأنّها قطـع البلـور لـيس بهـا
نقـب ولا أثـر بـادٍ ولا كـدر

أما الصاحب بن عباد فيجعل من الثلج لؤلؤاً منثوراً ، فإذا كان اللؤلؤ منه الرصاصى . ومنه العاجى ، فإن أشهره وأجوده النقى البياض وهذا مـا يريده الصاحب بن عباد . يقول [2] :

أقبل الـثلج فـى غلائـل نـور
تتهـادى بلؤلـؤ منثـور
فكأنّ السماءَ صاهرت الأرض
فصـار النثـار مـن كـافور

فالصاحب لم يجعل من الثلج لؤلؤاً منثوراً فقط بل جعله كنثـار مـن الكافور النبات الطيب الرائحة ذى النور الأبيض الذى يشبه الأقحوان ليمتـع حاسة الشم فينا إلى جانب حاسة البصر .

أما كشاجم فيصف الثلج فى وسط لوحة بديعة رسمتها عناصر الطبيعة من : أمطار تنزل ، وثلج يتساقط ، وشمس تطلع مرسلة أشـعتها الذهبيـة ،

[1] - يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ١٧٥ .
[2] - نهاية الأرب للنويرى ، جـ١ ، ص ٨٧ .

وأرض خضراء كالزبرجـدة ، فتتـداخل هـذه العناصـر فتتحـول الأرض الزبرجدية الخضراء إلى درّة بيضاء ، لا كلها ولكن فى بعض جوانبها التـى أشبهت الغرة أو بياض الجبهة ، لأن الشمس بطبيعة الحال أذابت بعضاً مـن الثلج فجعلت من الأرض ثغراً باسماً يكشف عن أسنانه البيضـاء أو يضـفى الثلج على الأرض شيباً وقوراً جميلاً يستحب . يقول [1] :

ثلـجٌ وشـمس وصـوب غاديـة
فالأرض من كـل جانـب غـرّة
باتـــت وقيعانهـــا زبرجـــدة
فأصـــبحت قـــد تحولـــت درّة
كأنَهـــا والثلـــوج تضـــحكها
تعـــار ممـــن أحبّـــهُ ثغـــره
شابت فســرّت بــذاك وابتهجــت
وكان عهدى بالمشــيب يســتكره

فإذا كانت الأرض قبل تساقط الثلج عليها زبرجدة خضراء ، أو فستقية اللون [2] ، فإنها بعد سقوطه تتحول إلى درة أى لؤلؤة عظيمة كبيـرة شـديدة البياض .

أما أحمد بن عبد العزيز القرطبى فيجعل من الثلج جبائر من درٍّ على معصم الدنيا فيرسم صورة تقوم على البرق والثلج والليل ، يقول [3] :

---

[1] - نهاية الأرب : جـ١ ، ص ٨٦ .
[2] - نخب الذخائر ، ص ٥٣ .
[3] - نهاية الأرب : جـ١ / ٩١ .

ولمّا تجلىّ الليلَ والبـرقُ لامــعُ

كما سلَّ زنجيٌّ حُساماً مـن التبـرِ

وبتُّ سَميرَ الـنجم وهـو كأنّــه

على معصم الدّنيا جبائرُ مـن درٍّ

ويأتى أبو معمر الإسماعيلى ليصف مطراً امتد سقوطه من الليل إلـى الضحى وتساقطت فيه الثلوج حتى غطت الأرض فلم تعد ترى ، ويرسم للثلج صورة جميلة بهيجة إذ يجعل الثلوج حُليًا من الفضة أرادت الغيوم التى جعلها صوّاغ فضة أن تردها عمداً إلى الورى . فتزينت الأرض ولبست هذه الحلى الفضية اللامعة . يقول فى معرض حديثة عن المطر ووصف الثلج[1]:

لك الخير من سارٍ معان إلى السرى

نصبنا له قرى الأرض الفضاء له قرى

أجاز الدجى حتى أناخ إلى الضحى

قلائصـه غـر الثواكـل والـذرى

فرحنا وقد بات السماء مـع الثـرى

وغاب أديم الأرض عنّـا فمـا يـرى

كأنّ غيـوم الجـو صـوّاغ فضـة

تواصوا برد الحلى عَمْداً إلى الـورى

وللقطر نفحـات تصـوب خلالهـا

كصوب دلاء البئـر أسـلمها العـرى

لقد عمّ إحسان الشتاء وبرده

بلى خصّ أربـاب الدسـاكر والقـرى

---

[1] – نهاية الأرب : جـ١ / ٩١ .

فهذه صورة رائعة عناصرها ، الغيوم والمطر والثلج الفضى ، والتى امتد عمرها مدة أطول إذ مكثت الليل بطوله إلى الضحى . ومن هنا فهمنا سر تشبيهه للثلج بالفضة ليتناسب لمعان الفضة مع الليل الداجى .

أما إبراهيم بن خفاجة الأندلسى فيقدم الثلج فى لوحة دقيقة تتكون عناصرها من : السماء والأرض والثلج والمطر ، والبرق . ونجده فى رسم هذه اللوحة يستخدم فرشاة رسّام ماهرٍ يدقق فى استخدام الألوان حتى جاءت الصورة معبّرة عن عناصرها أصدق تعبير . وأظهر الثلج فى منظومة جمالية رائعة ، حيث نجده يذهّب السماء ببرق أشقر يطارد سحابة بيضاء مجللة بالسواد ، ويفضض الأرض بثلج أبيض صاف لامع جميل . يقول [1] :

ويوم جرى برقه أشقرا
يطارد من مزنه أشهبا
ترى الأرض فيه وقد فضضت
ووجه السماء وقد ذهبا

وهكذا وجدنا الشعراء يستخدمون الجواهر والمعادن النفيسة فى وصف الثلج فتارة يجعلونه ، بلوراً وتارة يجعلونه لؤلؤاً منثوراً أو دراً ، وتارة يجعلونه فضة ، وأحياناً يذهبّون معه السماء وأحياناً يجعلون معه الأرض زبرجداً .

ولم يكتف الشعراء فى وصفهم لصورة الثلج بأن جعلوه معادن وجواهر ثمينة فقط بل جعلوا منه أزهاراً ونوريات طيبة الرائحة متخيرّين الأبيض منها مثل : الياسمين ، الآس ، الأقحوان ، الكافور ، فأضافوا لجمال

---

[1] - نهاية الأرب للنويرى ، جـ١ / ص ٩١ .

اللون والمنظر روائح عطرية فواحة ينتشر شذاها فى الأرض فيجعـل منهـا عروساً جميلة . ولكنها صور لا تلتقى عناصرها إلاّ فى أذهان الشعراء . لأن الثلج والمطر لا يجتمعان مع الأزهار إلا فى القليل . حيث لا يجتمـع فصـل الشتاء مع فصل الربيع . ولكن الشعراء جمعوا بين الفصلين .

فهذا أسعد بن مماتى يجعل من الثلج ياسمينا ذا زهر أبيض عطـرى ويجعل منه آساً وهو شجر أبيض الورق ، أبيض الزهر ، عطرى ثم يـزاوج بين هذه الأزهار البيضاء الفواحة والزجاج الأبيض (المينا والدرّ الأبـيض ، وثغور الملاح . فلا نجد شيئاً أبيض جميلاً إلا ذكره ، وهو يرسـم صـورة بيضاء عطرية للثلج يقول [1] :

لمّـا رأت عَيْنـى الـثَّلجَ خلتُـه الياسـمينا
وقلت من عجـب منْـهُ أصـبح الآس مينـا
وخلتُـه مـن ثغـور المـلاح للآثمينـا
فمـا أرادوا مـن الـدرّ قـطُّ إلاّ ثمينـا

ثم نراه يرسم صورة ثلجية أخرى ، تقوم علـى الصـبح والفـراش والياسمين والكافور والعنبر وبطبيعة الحال الثلج . فالصبح يأتى مزداناً باسطاً نوره على الأرض الذى يتسلل منبهاً مَنْ فى فراشه أن النهار قـد بـدأ إلاّ أن الثلج يتساقط كالياسمين أو كحبب الماء فى بياضه ونقائه مرسلاً أسـهماً مـن البرد كالفراش فى كثرته فتجعل المستيقظ يقوم من فراشه فى تكاسل ، ولكنـه عندما يمد بصره إلى الخارج فيجد الأرض العنبرية الخضـراء قـد تغطـت

[1] – معجم الأدباء : جـ٢ ، ص ١٨٩ .

بالثلوج وكأنها تغطت بزهر الكافور الأبيض . صورة ثلجية عطرية جميلـــة

يقول ابن مماتى :

مـــذ رأينـــا الصّـــبحَ يـــزدا
نُ ويـــــــزداد انفراشـــــــا

وحســـــبناً نـــوره يطـــــ
رد مَـــــنْ خلـــف الفَراشـــا

نثـــــر الـــــثلج علينــــا
ياســـــــمينا وفرَاشـــــــا

ورأى أن يُرْســـــل الأســـــ
هـــــم بـــــالبَرْد وفراشـــا

فغـــذا الكـــافوُر فـــى عنبـــ
رة الأرض فِراشـــــــــــا

رسم الشاعر هذه الصورة فى وسط تلاعب بكلمة الفــراش ، فتــارة يستخدمها بمعنى الاتساع والانبساط وتارة يستخدمها بمعنى متاع البيت ومرة بمعنى حبب الماء وتارة بمعنى الفراش الطائر ومرة بمعنى البساط . ولكنهـا استخدامات مفيدة أفادت إلى حد كبير فى رسم الصورة الثلجية .

ولكن إذا كان ابن مماتى رسم صورته السابقة مع مقدم الصباح فإنـه يرسم لنا صورة ثلجية أخرى . ولكن مــع الليــل ، فعنــدما يتســاقط الــثلج كالأقحوان الأبيض اللون على ثرى الأرض فى الليل فيجعلها بيضاء لامعـة وكأن الصباح انسحب عليها ، فيجعل منها وشاحاً مرصعاً بحبــات الــدرّ أو

اللؤلؤ الأبيض ، أو يجعل منها حباب النبيذ أو حتى ثغر مليحة حسناء بعد أن تفتحه مظهرة أسنانها اللؤلؤية يقول [1] :

لمّـــا رأت عيْنـــي الـــثلجَ
ســـــاقطا كالأقـــــاحى
وصـــار ليـــل الثـــرى منـــه
أبيضـــــاً كالصـــــباح
حســـبت ذلـــك مـــن ذو
ب دُرّ عقـــــدِ الوشـــــاحِ
أو مـــن حَبَـــاب الحُميّـــا
أو مـــن ثغـــور المـــلاح
فمـــا علـــى داخـــل النـــا
ر بَعْـــدَ ذا مـــن جُنـــاحِ

أما أبو الفضل الميكالى فيرسم صورة للغصون عندما يتنـاثر عليهـا الثلج فكأنها قد نثرت بالذريرة وهو مسحوق أبيض مـن الطيـب ، فيجعـل الأغصان وكأن نَوْراً فيها أو نوراً يشع منها . أو يشبه الثلج وقد غطى بعض الأغصان وترك البعض بذوائب أصابها الشيب أو بأجفان عين تحمل كـافوراً زهره أبيض اللون ، يقول [2] :

---

[1] – معجم الأدباء : جـ٢ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .
[2] – ديوان الميكالى ، ص ٩٣ ، اليتيمة ، جـ٤ / ٣٧٣ .

نثر السحابُ على الغصون ذُرَيْرةً
أهدت لها نَـوْراً يـروق ونـورا
شـابت ذوائبهـا فعـدن كأنّهـا
أجفـانُ عـين تحمـل الكـافورا

صورة ثلجية رائعة أيضاً عناصرها : الثلج والذريرة ، والنَوْر والنور، والشيب والكافور وكلها تعطى بياضا وعطراً .

أما أبو الفتح كُشاجم فيصف الثلج مزاوجاً بـين المعـادن والأزهـار فيرسم صورة ثلجية مفرداتها ، الفضة والكافور والثغـر الضـاحك الباسـم وذوائب شابت ، وأشجار تغطت بملاءة ثلجية تهتكها الرياح عما قليل فتنهـى معالم الصورة . يقول [١] :

الـثلج يسـقط أم لُجـينٌ يسـبكُ
أم ذا حصى الكافور ظـلٌ يُفـركُ
راحت به الأرض الفضاء كأنهَـا
فى كـل ناحيـةٍ بثغـرٍ تضـحكُ
شابت ذوائبهـا فبـيّن ضـحكها
طرباً وعهـدى بالمشـيب يُنَسَّـكُ
وتردّت الأشـجارُ منـه مُـلاءة
عمّـا قليـل بالريّـاح تُهتَّـكُ

[١] - نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٨٦ .

ويعود ابن مماتى ليرسم صورة عجيبة للثلج المتساقط ، حيث يجعلـه كلبن يتساقط من السماء ، مع أن الثلج متجمدٌ واللبن سائل ، ولكنه جعل اللون الأبيض الرائق عاملاً مشتركاً بينهما يقول [1] :

لمـــا رأيـــت الــثلجَ قـــد
غطــــى الوهــــاد والقــــنن
ســـألت يـــا أهـــل حَلَـــبْ
هـــل تُمطـــرُ السَّــما اللّـــبن ؟

فإذا تعاظم الثلج وكثر على الأرض رآه ابن ممـــاتى ســماءً غطـت الأرض ، فيكثر البرد الشديد مما يجعله يتذكر زمهرير جهنم فيزيـد الخـوف يقول [2] :

لمـــا رأيـــت الـــثلج قـــد
أضـــحت بـــه الأرض ســـما
وأنســـت الصّـــبا الصّـــبا
وأذكـــــــرت جهنمـــــــا
خفـــت فمـــا فتحـــت مـــن
تعـــاظم الخـــوف فمـــا
فـــإن نمـــا صـــبرى وهـــو
نـــــاقص فإنمـــــا

[1] – معجم الأدباء : جـ٢ / ١٩٠ ، والوهاد : المنخفض من الأرض ، والقنن : المرتفع منها .

[2] – معجم الأدباء : جـ٢ / ١٩٠.

ويأتى القاضى أبو جعفر البّحاثى فيجعل من الثلج بيض حمام . ومن أجل أن يتناسب عدد البيض مع عدد حبات الثلج جعل الحمامة تستمر فى إنزال البيض من الخوف يقول [1] :

بَرَدٌ حكى بيض الحمام ولم تـزل
من خوفه تلقى الحمامةُ بيضها

أما السرّى الرفاء فيجعل للغيم عيونا تبكى بَرَداً وتكتحل بنار البرق . يقول فى وصف يومٍ متلوّن جاء بالبَرَد [2] :

يوم خلعت به عذارى
فعريت من حِلَل الوقارِ
وضحكت فيه إلى الصبا
والشيب يضحك فى عذارى
متلونٌ يُبْدى لنا
طرفاً بأطراف النّهارِ
فهواؤه سلب الرِّداء
وغيمه جافى الإزارِ
يبكى فيجمد دمعه
والبرق يكحله بنار

[1] - دمية القصر للبخارزى ، جـ٢ ، ص ٤٣٧ .
[2] - خاص الخواص للثعالب ، ص ١٥٢ .

وهكذا وجدنا الشعراء يرسمون صوراً ثلجية رائعة ، عناصرها الجواهر الثمينة والأزهار الفوّاحة وأحاطوها بكل جميل مبهج . ولكن كل هذه الصور ارتبطت بهطول الأمطار فى فصل الشتاء . أما أن يسقط الثلج فى فصل الربيع بعد أن تتزين الأرض وتتزخرف فهذا يجعل الصورة أكثر جمالاً وإشراقاً .

٢- الثلج وجمال الربيع :

عهدنا أن يبدأ فصل الربيع فى آخر آذار بعد أن ينتهى فصل الشتاء ويختفى معه الثلج والأمطار والبرد وتتخفف الطبيعة من ردائها وتبدى زينتها ما ظهر منها وما بطن ، ولكن أحياناً يتخطى المطر زمانه وفصوله فيفاجئ الورى بقدومه على غير توقع واستعداد . فنراه يسقط فى فصل الربيع مثلاً . مغطياً الطبيعة الخلابة الجميلة بثلوجه فيخفى معالم بعضها ، أو يصنع الثلج مع البعض الآخر لوحة جميلة .

فهذا أبو محمد المطرافى يصف ثلجة سقطت بعد النيروز وبرد أضر بالأنوار . فبعد أن يتعجب من تفاوت الفصول وتداخلها نراه يصف سحابة ممطرة جاءت فى الليل ببردها وثلجها ، فأضمرت فصل الربيع بأشجاره وأزهاره وكأن الشتاء عاد من جديد بعد أن تذكر ثأراً له فجاء لينتقم يقول [١] :

عجباً لآذار جاء فى آذار
وتفاوت الأفلاك فى الأدوار
طلعت عشاءً للبيات سحائب
أنواؤهن خسفن بالأنوار

[١] - يتيمة الدهر : جـ٤ / ١١٩ .

أبدى الربيع لنـــا شـــتاءً مضـــمراً

يأبى ظهـــور ضـــمائر الأشـــجار

ندم الشتاء على التقضـــى فـــانثنى

لينـــال منتقمـــاً بقايـــا الثـــار

أما الصنوبرى فيرسم صورة عطرية جميلة للجو فى فصل الربيـــع ، ثم يسقط عليها الثلج، فالطبيعة مزينة ومنقوشة بأزهار عطرية من البَهَـــار ، والشقائق ، والورد ، والبنفسج ، وهى أزهار مختلفة الألوان فتملأ هذه الأزهار الجو طيباً وعطراً ، فتمتع حاسة الشم والبصر ثم يتناثر عليها الثلج فيغطيهـــا بغلائل من فضة . تظهر بعض الألوان وتغطى البعض أو تجعل النَوْرُ كأنـــه ذهب أصفر على فيزوزج أزرق اللون .

يقول فى ثلج سقط فى فصل الربيع [1] :

الجـــوّ بـــين مُضـــمَّخ ومضـــرّج

والروض بين مزخـــرفٍ ومـــدبَّج

والثلج يهطل كالنثـــار فقـــم بنـــا

نلتـــذ بابنـــة كرمـــةٍ لـــم تمـــزج

ضحك البَهَارُ وبان حسن شـــقائق

وزهتَ غصونُ الورد بين بنفســـج

[1] – ديوان الصنوبرى ، ص ٤٠٦ ، وتنسب الأبيات للوزير المهلبى فى " من غاب عنـــه المطرب " للثعالبى ، ص ٨١ ، ٨٢ ، ويتيمة الدهر ، جـ٢ / ٢٣٧

والفيروزج : حجر أزرق صلب من المعادن النفيسة .

فكأنَّ يَوْمَك من غلائل فضــــةٍ
والنور من ذهب على فيروزج

ويأتى ابن منير الطرابلسى فيدخل الثلج فى منظومة ربيعيــة متعــددة الأشكال والألوان والعطور . فيصف لنا يوماً ربيعاً انقلب عليه الشتاء فجــاء شديد البرودة ، يتجمع الغيم ويغطى سماءه ، ويتساقط ثلجه على ثمار النارنج فيجعلها كالنور فوق مجامر النار كل هذا فى وسط شمس تظهر وتغيب ورياح تهز الأشجار وتسقط منها ما تشاء ، إنها بحق صورة ثلجية ربيعية رائعــة . يقول [١] :

اليوم قرٌ وجيب الــدجن مــزرورُ
والظــلُ منــتظمٌ والطــلُ منثــورُ
كأنَ ما اصفرَّ مهما احمرَّ ترقبــه
فى مجفل النور محزونٌ ومسرورُ
كأنَ أكمامَهُ مــن تحــتِ زاهــره
فى الدوح ضدّان مهتوكٌ ومســتورُ
كــأنَ نــوّاره والــريح تقذفُــهُ
فى الماء جيشان مخذولٌ ومنصورُ
كأن أظلالــه والشــمس ينسـخها
عنــه رداءان مطــوىٌ ومنشــورُ
كأنّما الـثلج والنــارنج مرتــديا
بــه مجــامرُ نــارٍ فوقهــا نــورُ

---

[١] – التذكرة الفخرية للأربلى : ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .

عُرْسُ الربيع الذى فُضّتَ دراهمه
عليــه وانتشــرت فيــه الــدنانيرُ

فالجو والنورُ والــوادى وتربتــه
مســك وورْدٌ وديبــاج وكــافورُ

تهدى نوافحه مــا فــى نوافجــه
فعيشــه مطلــقٌ والهــمّ مأســورُ

ما شئت من مُلَــحٍ فيــه يصــفقها
شــادٍ وحــادٍ ومــلاحٌ ونــاطورُ

وهكذا وجدنا الثلج يدخل فى تشكيل الصور الربيعية ، فيعطيها متعــة وإثارة ويزيدها جمالا على جمال .

٣- الثلج والشراب :

لم يكتف الشعراء بأن وصفوا لنا صورة الثلج فقط ، أو بإدخاله فــى منظومة جمالية ، ولكن ورد فى شرابهم أيضاً حيث كانوا يضيفونه إلى الماء ليبرده فى الأيام شديدة الحرارة . أو يشربون النبيذ وغيره إذا تساقط الثلج فى الشتاء وسرت قشعريرة البرد فى أجسامهم . ومن هنا وجدنا ارتبــاط الــثلج بالشراب كثيرا فى أشعارهم الثلجية .

فهذا أبو طالب المأمونى يصف ماءً بجليد أو ماءً مثلجاً فيتحدث عــن صفائه ونقائه وشدة برودته حتى كأنه ملتحف بثوب القرّ ، ثم يجعلنــا نتأمــل

الماء معه والثلج يتأرجح بين سطحه وأسفله ، فما أجمله من شـراب يعطـي العافية لجسم . يقول [1] :

ورائـق مثـل الهـواء صـافي
بـات بثـوب القـرّ ذى التحـافِ
حتّى نفـى عنـه القـذاة نـافي
فـرقَّ حتـى صـار كالسـلافِ
أسرع فى الجسـم مـن العـوافى
فيـه الجليـد راسـب وطـافي

أما أبو الفضل الميكالى فيصف البَرَد أو الثلج منذ أسقطته السحابة إلى أن نزل فى الغدير أو تجمع مع الماء فى حفرة يخرج منها صافياً . ثم يتحدث عن لونه وصفائه فهو كصحائف البلور أو قطع الكافور . وذهب إلى أن قطع الثلج لو كانت تبقى لكانت أرق وأجمل من القلائد أو جواهر النحور أو حتـى ثغور الملاح ، ثم يتحدث عن أثر الثلج عندما يضاف إلى الماء فـى فصـل الصيف وكيف يتحول برداً وسلاماً على الأكباد والصدور يقول فى وصـف الجمد [2] :

ربَّ جنـين مـن جنـى النميـر
مهتـكِ الأسـتارِ والضـميرِ
سـللته مـن رحـم الغـدير
كأنهـا صـفائحُ البلّـور

---

[1] – يتيمة الدهر : جـ٤ / ١٧٥ .

[2] – زهر الآداب : جـ٢ ، ص ٩٤٠ ، وديوان الميكالى ، ص ١١٧ .

أو أُكَــرٌ تجســـمت مـــن نـــور
أو قطـــع مـــن خـــالص الكـــافورِ

لو بقيــت ســلكا علـــى الـــدهور
لعطلـــــت قلائـــــد النحـــــورِ

وأخجلــــت جـــواهر البحـــور
وســـــميت ضـــــرائر الثغـــور

يا حُسْـــنَه فـــى زمـــن الحـــرور
إذ قيظـــهُ مثـــل حَشـــا المهجـــورِ

ويجلب السرور للمقرور

أما الصنوبرى والذى يعد أول من قال فى الثلجيات والكل عيال عليه كما ورد فى اليتيمة[1] فيدعو إلى الشراب وملء الكئوس بالنبيذ ، لأن الثلــوج تساقطت والجسم يحتاج إلى شىء من الحرارة فلا بــأس أن يمتــع الـــروح والنظر، الروح بالشراب والنظر بمنظر الثلج الدرّى أو الفضى أو الذى يشبه الورد الأبيض ، ولماذا يشبهه ؟ بل هو ورد أبيض يظهر فى كـــانون غيـــر الورد الملون الذى يظهر فى الربيع : يقول [2] :

ذهّـــبْ كؤوســـك يـــا غـــلا(م)
م فـــإن ذا يـــومٌ مفضـــضْ

والجـــوُّ يجلـــى فـــى البيـــا
ض وفـــى حُلـــيِّ الـــدرِّ يعـــرضْ

[1] - يتيمة الدهر : جـ٣ / ٢٦١ .
[2] - ديوان الصنوبرى ، ص ٢٢١ والتوفيق التلفيق للثعالبى ، ص ١٣٦ من غـــاب عنـــه المطرب للثعالبى ، ص ٧٨ .

أظننـــــــــت ذا ثلجـــــــــاً وذا

ورْدٌ مــــن الأغصــــان يُـــنفضْ

وَردُ الربيـــــــــع ملــــــــــوَّنٌ

والـــورد فــــى كــــانونِ أبـــيضْ

ولم يكن الصنوبرى وحده هو الذى جعل من الثلج ورداً أبـيض فــى أشهر الشتاء وقبل ظهور ورد الربيع ، بل الصاحب بن عباد أيضاً يجعل من الثلج ورداً منثوراً فى كانون وذلك فى معرض حديثه عن الشراب يقول [1] :

هات المُدامة يـــا غـــلامُ مُعَجِّـــلا

فالنفس فى قيد الهـــوى مأســـوره

أو ما تـــرى كـــانون ينثـــر ورده

فكأنمـــا الـــدنيا بــــه كـــافوره

وفى موضع آخر يجعل من الثلج ورداً منثوراً أيضاً ، أو سبائك مـــن الفضة ، معداً لبرد كانون الشديد ، مدامة ونُقل حتى يتغلب عليه ، ولم يطلـــب نقْلا عاديًا بل تخيّره قُبلا وعضّات. يقول [2] :

هاتِ المدامةِ يــا غـــلامُ مصـــيراً

نُقْلَــى عليهـــا قُبلـــةً أو عَضَّـــةً

أو ما تـــرى كـــانُونَ ينثـــر ورده

وكأنّمـــا الـــدنيا ســـبائكُ فضـــةِ

---

[1] – من غاب عنه المطرب ، ص ٧٨ . والنقل ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفـــاح وغيرها ، وشهر كانون : من قلب شهور الشتاء وعندنا الآن : كانون الأول : ديسمبر ، وكانون الثانى ، يناير .

[2] – معجم الأدباء : جـــ٢ ، ص ٢٨٨ ، يتيمة الدهر ، جـــ٢ ، ص ٢٨٨ .

ونعود إلى الصنوبرى حيث يرسم لنا صورة ثلجية خمرية حيث لبست الأرض ثياباً مضاعفة من الثلج كأنها ندف القطن الأبيض ثم يدعو إلى الاحتفال بيوم الدَجْنِ والذى يعدل عنه يوم العرس ، من خمرة بكرية لم تمس قبله ، من يد غلام خضبت يداه بالحناء . مما يبعث السرور والفرح فى النفس يقول [1] :

تعالى الله خالق كل شيء
بقدرته وبارى كلّ نفسِ

لقد أضحى جميع الأرض تجرى
كواكبه بسعد لا بنحسِ

ألم تر كيف قد لبست رُباها
من الثلج المضاعفِ أىّ لبسِ

ثياباً لا تزال تذوب لينا
إذا الأيدى عَرَضْنَ لها بلمسِ

كأنّ الغيمَ مما بثّ منه
على أرجائها أنداف برسِ [1]

فحاذر أن يفوتك يوم دَجْنٍ
فيوم الدَجْنِ يعدلُ يوم عرسِ

وعاط الشَّرْبَ بكراً لم تنلها
بنانُ يدٍ ولا افترعت بمسٍّ

كأنّ يدَ الغلام إذا استقلت
إلىَّ بكأسها خضبتْ بورسِ

---

[1] - ديوان الصنوبرى ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

إذا ما كان وجهك نصـــــب عينى

مُنىً نفســـــى فما أرجو بشمس ؟

يومٌ غائم وثلج يتساقط وكأس سلافى بكرى ، وساقٍ جميل الوجه يداه مخضبتان ، أشياء تبعث على الدفء والراحة النفسية فلا جدوى مـــن وجـــود الشمس .

أما أبو الفتح البستى فيصف لنا كيف عاد فى يوم ثلجى إلـــى أوعيـــة الخمر : الكأس والدنان يفتقها بعد أن هجرها رشداً ونسكاً ، ثم يوازن بين لون الثلج الكافورى الأبيض وبين لون الشراب فى الكأس المسكى الذهبى يقول [١] :

كم نظمنا عقــود أنـــسٍ وقصـــفٍ

وجعلنـــــا الزمـــــانَ للهوسِـــلْكَا

وفتقنـــا الـــدّنان فـــى يـــوم ثلـــج

عزل الكاس فيـــه رشـــداً ونُسْـــكَا

فكـــأن الزمـــانَ ينخـــلُ كـــافو

راً علينـــا ونحـــن نفتـــق مِسْـــكاً

ويأتى أبو عبد الله الروزبارى ليصف يوماً ثلجياً ، ناعتا الثلج بشـــتى أنواع النعوت الحسنة فهو لؤلؤ وفضة ، شابت به مفارق الأرض . ألا يحق له أمام هذا المنظر الحسن أن ينفى همّه بكأس قهوة من ابنة العنـــب وأن يمـــلأ

---

[١] - زهر الآداب : جـ٢ ، ص ٩٤٠ . ومن غاب عنه المطرب ، ص ٨١ .

كؤوسه ودنانه ، ليمزج بين لون الثلج الفضى الأبيض ولون الشراب الذهبى .
يقول [1] :

ما لابن همّ سوى شرُب ابنة العنب
فهاتهـا قهـوة فراجـة الكُـرَبِ
أذهِقْ كؤوسك منها واسقنى طربا
على الغيوم فقد جاءتك بـالطَرب
أما ترى الأرض قد شابت مفارقها
بما نُثرنَ عليها وهـى لـم تَشِـب
راحت مفضضة الحافات قد لبست
بيضاً من الحلل الديباجـة القُشُـب
نثار غيث حكى لون الجمان لنـا
فاشرب على منظرِ مستحسنٍ عجبِ
جاد الغمامُ بدمعَ كـاللجَيْنِ جَـرَى
فجُدْ لنا بالتى فى الكَوْنِ كالـذَّهَب

أما السّرى الرفّاء فيطرق باب صديقه طالبا الشراب فى وقت كثيف المطر ، شديد البرق، كثير الثلج . فيرسم صورة عمادها اللون الذهبى للبرق ، واللون الأبيض الكافورى للثلج، ولون العقيق للشراب ، بالإضافة إلى إبداعه فى وصف الجو النفسى البهيج الذى أحدثته هذه العناصر المختلفة . يقول فى وقت كثير الثلج شديد البرد [2] :

---

[1] - من غاب عنه المطرب ، ص ٨١ ، ويتيمة الدهر : جـ٣ / ٤١٦ .
[2] - يتيمة الدهر ، جـ٢ / ١٧٥ .

طرقتك ممتاحـــاً ولـــيس لطـــارق
يرومك من دمع الضريب طريـــق
جنوب تحت المزن حثـــا وشـــمأل
تعبّس منه الوجــه وهــو طليــق
وضوءُ حريق ألبس الأرض ثوبه
يخاف على الإقدام منــه حريــقُ
تثير الصَّبا في الجو منه عجاجــةً
كما انتثر الكافور وهــو ســحيق
وما انفــلّ حــدُّ القَــرّ إلاّ بقهــوة
ترقــرق فــي كاســاتها فتــروق
إذا لبســـت أثوابهـــا فعقيقـــة
وإن نشـــرت أنفاســـها فخلـــوقِ
تدور علينا كأســها فــي غلائــل
رقاق تردّ العــيش وهــو رقيــق
فألبس منها جبّــةً حــين أنتشــى
وأخلعهــا بــالكره حــين أفيــقُ
وإنى خليــق مــن نــداك بمثلهــا
وأنت بمــا أمّلــتُ منــك خليــقُ

أما القاضى أبو جعفر محمد بن إسحاق البحّاثى فيدعو صديقه أن يخلع عذاره ويهجم على اللذات ، ويشرب ، رضى العواذل أم غضبوا حيث الجــو ملائم للشراب ، فالبرق ينشر رداءه الذهبى على الكون والثلج يتناثر كثغــور

معسول الثنايا أو كالدرّ الذى لم يثقب ، والغيث ينهمل والبرد يشتد ، وهذا هو الجو المهيأ للشراب يقول [1] :

قم يا ابن عثمـان الكـريمَ المنصـبِ
واشرب على رغم العواذل واطربِ
واخلع عذارك فى السرور وفى المُنى
غضبت له اللذات أو لـم تغضَـبِ
أو ما ترى الغيـث الركـام مطـرّزاً
ببُروقه مثـل الـرداء المـذّهَبِ ؟
متنـاثراً فـوق الثـرى حَبَّاتُـه
كثغـور معسـولِ الثنايـا أشـنبِ
بَـردٌ تحـدّر مـن ذرا صَـخّابةٍ
كالـدُّرِّ إلاّ أنّـه لـم يُثْقـبِ

أما كُشاجم فيدخل الثلج فى عناصر احتفالية رائعة أقامها لجماعة مـن نجوم المجتمع عمادها الطعام والشراب ، والغناء ، والخيش المبلل . فيكتـب إلى آخر وقد دعاه فتثاقل عليه [2] :

جعلـت فـداءك مـاذا الجفـاء
قل لى متى كنت عنّـى صـبورا
رددت الرسـول بـذلّ الحجـاب
فحجّبت عـن مرسـليه السُّـرورا

---

[1] – دُمية القصر للبخارزى ، جـ٢ ، ص ٤٣٧ .
[2] – قطب السرور فى أوصاف الخمور ، للرقيق النديم ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

وقــد حضــورا كلّهــم كـــالنجوم

ولو قــد رأوك لصـــاروا بـــدورا

وقـــد أحكـــم الطـــبخ طباخنـــا

وأعجلـــــه واســـــتتمّ القــــدورا

وفاحـــت بمثـــل ثنـــاء العفـــاة

غـــداة انتخـــوا لِنَـــداك الغزيـــرا

وبُـــلَّ لنـــا الخـــيشُ فـــى قبّـــة

تعيـــد الشـــتاء وتنفـــى الحـــرورا

وحبـــلٌ تســـاقط قطـــر الميـــاه

عنـــه إلـــى الأرض دُرّا نثيـــرا

فلو أنّهـــا نصـــبت فـــى الجحـــيم

لغادرهـــا بردُهـــا زمهريـــرا

وعنـــــدى ثلـــــج توهَّمتــــهُ

بيـــاض أيـــادٍ أصـــابت شـــكورا

يريـــك بيـــاض ثغـــور القيـــان

رأيـــن بـــرأس محـــبٍّ قتيـــرا

ويعـــدل عـــن شـــاربيه المـــزاج

ويعـــدل صـــفراءهم أن تثـــورا

وســـــاق أغـــــن ومشـــــمولة

غدا المسك من ريحهـــا مســـتعيرا

ومســـمعة تطـــرب الســـامعين

برنـــات طفـــل يشـــوق الكبيـــرا

وتهدى إلى القلب زور السـرور

إذا حرّكت منـه مثنـى وزيـرا

فـلا تخلنـا منـك يـا سـيدى

وكـن بالمسـير إلينـا جـديرا

وهكذا وجدنا الشعراء يصنعون تشكيلاً شعريا رائعاً من مزيج الـثلج والشراب سواء اعتلى الثلج الكؤوس والدنان ، أو صنع جـواً يحتـاج فيـه الشارب إلى الشراب .

٤- التهادى بالثلج :

نظراً لأن الثلج كان يمثل قيمة تتصل بالعيشة الحضارية المترفة التى لا تتوفّر إلاّ لعلية القوم ، الـذين يسـتطيعون الحصـول عليـه مـن أجـل استخداماتهم، أو حتى يقوموا بتصنيعه ، وجدنا الثلج يعد من الأشـياء القيمـة التى يتبادلها أبناء الطبقة المترفة ويعدونها من الأشياء الثمينة فى هـداياهم – وقد رأينا كيف كان الخلفاء عندما ينعمون بخلع الوزارة على أحـد يهدونـه بآلاف الأرطال من الثلج مع خلع أخرى .

ولهذا وجدنا أبا الفضل الميكالى يفرح بهدية ثلج جاءت إليه من صديق خالعاً عليها العديد من النعوت الثلجية مثل سبائك الفضة والبلور والنقاء ، كما عبر عن محبته الشديدة للثلج والتى تعادل محبة الشيعة للحسين . يقول [١] :

أهدى صديقٌ لى من " جُـوَين " [١]

بنـاتَ قـرٍّ رضـعت ثـديين

[١] – ديوان الميكالى ، ص ٢٢٢ ، ودَرْج الغُررَ وجُرْج الدُرر ، للمطوّعى ، ص ١١٩ .

مــاء ســحابٍ بعــد مــاء عــينِ
كأنّهـــا ســَــبائكُ اللُّجـــين

ما صـــاغها بالنــارِ كـفُ قــينِ
أو قطـــع البلّـــورِ مـــلء العَـــينِ

صافيةً مــن شــوبِ كـلّ شــين
تَــزين نـــادى القَـــومْ أى زيـــن

فيها شــفاءٌ مــن غليــل الحَــين
حبِّـــى لهـــا حُـــبٌّ بغيـــرِ مَـــينِ

مَحبَةُ الشيعة للحسينِ

أما النميرى فيصف هدية الثلج التى أهديت إليه ، فيصــورها بحـب اللؤلؤ الذى لم يثقب أو أسنان حواء اللثات التى تشبه زهر الأقاحى . يقول [١] :

أهــدى لنـــا بَـــرَدَاً يلـــوح كأنّـــه
فى الجوّ حَبُّ لآلـــىءْ لـــم يثقـــب

أو ثغْرُ حَـواء اللّثــاتِ تبسَّــمتْ
عن واضح مثل الأقـــاحى أشـــنبِ

وهكذا وجدنا أن الثلج كان يمثل هدية قيمة تــثلج صــدور الشــعراء ويعبرون عن فرحهم بها .

---

[١] - نهاية الأرب للنويرى ، جـــ١ / ص ٨٧ .

٥- الثلج فى مجال المديح :

فلأن الثلج من الأشياء الجميلة التى تبهج الـنفس وتسـعدها نجـد أن الشعراء يدخلونه فى مجال المدح . فهذا ابن مماتى (ت ٦٠٦هـ) عنـدما سقط الثلج بكثرة على حلب فى سنة ٦٠٥هـ علل ذلك بأن سقوط الثلج مرتبط بحكم غياث الدين لها . يقول وهو يمدح غياث الدين[١]:

قد قلت لمّا رأيت الـثلج منبسـطاً
على الطريق إلى أن ضلَّ سـالكها
ما بَيَّضَ اللهُ وَجَه الأرض فى حَلب
إلاّ لأن غيـاث الـدين مالكهـا

ثم نراه يشبه غياث الدين بالنبى سليمان ﷺ والصرح عندما شاهده فى صدر المجلس وأمامه الثلج . يقول [٢] :

بسيف غياث الدين غازى بن يوسف بـ
ـن أيوب دام القتل واتّصل الفـتحُ
وشاهدته فـى الدَّسـتِ والـثلج دونـه
فقلت سليمان بـن داود والصّـرحُ

فهو يشبه الثلج بالصرح فى نقائه .

---

[١] - معجم الأدباء : جـ٢ / ص ١٨٨.
[٢] - معجم الأدباء : جـ٢ / ١٦٩ .

٦- الثلج فى مجال الهجاء :

وكما استخدم الشعراء الثلج فى مجال المديح استخدموه أيضاً فى مجال الذمّ والهجاء .

فهذا هبة الله البغدادى المعروف بالبديع الاسطرلابى يعتبر الثلجَ شـيئاً حلّ بالآفاق من كثرة ظلم الناس ويعبر عن الثلج بالوَفْر حيث الوفر هو الـثلج بلغة أهل العراق يقول فى عام نزل فيه ببغداد ثلج كثير [1] :

يا صُدورَ الزّمـان لـيس بـوَفْرٍ
ما رأيناه مـن نـواحى العـراقِ
إنّمـا عَـمَّ ظُلمكـم سـائر الأر
ضِ فشـابتْ ذوائـب الآفـاقِ

٧- الثلج والخيل :

ليس هناك علاقة بين الثلج والخيل غير أن الخيل قد تستخدم فى الطرد فى يوم مثلج ، أو أن تستخدم الخيل فى رسم صورة ثلجية .

ففى الحالة الأولى نجد أبا فراس الحمدانى يصف لنا خروجه بالخيـل فى رحلة صيد والأرض مفروشة بملاءة ثلجية ، مما يمثل صعوبة على الخيل تحتاج منه إلى صبر كثير . يقول فى خيل طاردت يوم ثلج [2] :

---

[1] - معجم الأدباء : جـ٥ ، ص ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

[2] - ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : جـ٢ ، ص ٤٩ .

ويومٍ كأنّ الأرض شـــابت لهولـــه
قطعت بخيل حَشوٍ فرسانها الصبرُ
تسير على مثــل المـــلاء منشــراً
وآثارها طُــرزٌ وأطرافهـــا حُمــرُ

وفى صورة ثلجية يشبه الصنوبرى توالى الثلج فى الســقوط حيــث يذهب بعضه ويجىء البعض بتوالى الخيل المتسابقة فى الركضِ يقــول فـــى وصف يوم مثلج [1] :

سرور ذا اليوم ســرور مَحــضُ
وعيش هذا اليـــوم عــيشٌ غــضُّ
فتوبـــة التائـــب فيـــه بغـــضُ
أما تــرى الــثلج الــذى يــنقضُّ
يذهب بعــضٌ ويجـــىء بعــضُ
كالخيل والـــى بيـــنهن الــركضُ
مُتَّســـقٌ هـــذا وذا مُـــنْقضُ
فكـــلُّ مـــا تلحظـــهُ مبـــيضُّ

تضحك من ضحك السماءِ الأرضُ

[1] – ديوان الصنوبرى ، ص ٢٢٦ .

٨- الثلج ومعرفة الفصول :

من المعروف أن تساقط الثلج يرتبط عادة بهطول الأمطار وكل هـذا يرتبط بفصل الشتاء فإذا قلنا : إن الثلج كان يسقط انسحب ذهننا إلـى فصـل الشتاء . ولهذا نجد الشاعر أبا نصر سهل المرزبان يشير فى أبيات ثلجية إلى ما يدل على فصل الشتاء يقول [١] :

قُلـتُ لَمّـا قيـل لِـمَ تهجرنـا
إن أتـى بَـرْدٌ وإن ثلـجٌ وقـع
أنـا كالحيّـةِ أشـتو كامنـاً
ثـم أنسـابُ إذا الصـيف رجـع

٩- المعجم الشعرى لشعر الثلجيات :

لم يكن إعجاب الشعراء بالثلج ينصب على ماهيته فقط وما يمثله مـن ظاهرة تصاحب المطر فى فصل الشتاء ، أو من قطع تبرّد الماء والمشروبات فى فصل الصيف ، بل تخطى إعجابهم ذلك إلى الإعجـاب بلونـه الأبـيض الجذاب الذى يغيّر وجه الأرض إذا نزل الثلج . ولهذا وجدنا الشعراء ينعتون الثلج بكل شيء يتسم باللون الأبيض ، ليس هذا فقط ولكن لأنه محبـب إلـى نفوسهم راحوا يصفونه بكل جميل وثمين ولهذا وجدناهم يتخيرون من الجواهر والمعادن الثمينة والأزهار والنوريات وأشياء أخرى ، كل أبيض ترتاح إليـه العين والنفس فوصفوا بها الثلج مثل: البلور – الـدُر – اللؤلـؤ – الفضـة –

[١] - خاص الخواص : للثعالبى ، ص ١٩٩ .

الميناء، والأقحوان – الآس – الياسمين – الكافور – الشقائق – الذريرة – واللبن والبَرْس – الثغور – الشيب – الحَبَاب – بيض الحمام – الغرّة ، وكل هذه الأشياء بعضها يندرج تحت الجواهر والمعادن وبعضها يندرج تحت الأزهار ، والبعض الآخر يأتى غير متجانس . إلاّ أن جميعها من الممكن أن تجمعها سمة واحدة وهى اللون الأبيض. مما يجعلنا نستطيع أن نجمعها تحت مجال دلالى واحد وهو اللون . ومن خلال دراسة هذا المجال الدلالى العام نستطيع أن ندرس سمات كل عنصر على حدة .

فإذا كان اللغويون المحدثون قد احتفوا بنظرية المجال الدلالى فى تحليل المعنى لوعيهم بالهدف أو الدور الذى تؤديه فى دراسة المعنى عن طريق جمع واستقصاء كل الألفاظ التى يمكن أن تخص مجالاً بعينه ، إذ تتحدد دلالة الكلمة مع أقرب الكلمات فى إطار مجموعة دلالية واحدة، فإنهم قد تنبهوا إلى أن ذلك التصنيف يقوم على الموضوع الذى يحدد طبيعة العلاقة التى تربط بين الألفاظ داخل المجال . لذا ينبغى إذا أردنا فهم معنى كلمة يجب أن نفهم كذلك مجموعة الكلمات المتصلة بها دلالياً ، أو يجب دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعى [١] " . وهذا ما سنحاول أن نقوم به لنفهم دلالات المفردات التى استخدمها الشعراء فى وصف الثلج ولماذا تخيّروا هذه العناصر بالذات . ونحن عندما نقوم بهذا العمل لا نبعد كثيراً عن الدراسة الأدبية ؛ لأن العلوم تتكامل من ناحية ، ولأن اللغويين الفرنسيين " كانوا يعتبرون مسألة علم المعنى أو الدلالة من اهتمامات الأساليب والدراسات الأدبية إلى عهد قريب [٢] " .

---

[١] – التحليل الدلالى : د. نصر الدين صالح سيد ، ص ١١ .

[٢] – علم الدلالة : كلود جرمان وريمون لوبلون ، ترجمة د. نور الهدى لوشن ، ص ٧ ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازى – ليبيا – "الطبعة الأولى – ١٩٩٧م.

وتقوم نظرية المجال الدلالى على تحليل دلالة الكلمات وفق نطاقات أو مجالات أو حقول، حيث تقيم علاقات متبادلة فيما بينها وتحدد معناها . ولعل الكلمات التى تشير إلى الألوان خير مثال على ذلك [1] :

وجميع العناصر التى استخدمها الشعراء فى وصفهم للثلج تجتمع تحت اللون الأبيض كما أسلفنا ، وهذا اللون نعتبره مجالاً دلالياً عاماً ، ويمكن أن نفرعه إلى ثلاثة مجالات فرعية نجمع تحتها الأشياء الأكثر تجانساً ولهذا نستطيع أن نقسمها إلى :

أ – **المجال الفرعى المتجانس الأول** : يدور حول الجواهر والمعادن النفيسة .

ب- **المجال الفرعى المتجانس الثانى** : يدور حول الأزهار والنوريات .

جـ- **المجال الفرعى الثالث (غير متجانس)** : يجمع أشياء غير متجانسة ولكنها تجتمع تحت اللون الأبيض .

أ – المجال الفرعى الأول :

ويجمع : البلور – اللؤلؤ – الدر – الفضة – المينا .

١- البلّور :

حجر البلور هو المها منصوب الميم ومكسورها ، قالوا أصله من الماء بصفائه . والمها حجر أبيض يعرف ببصاق القمر ، وإنّه حجر يوجد فى أرض العرب يلمع بالليل كالنار ولم يحظ بغير البياض [2] .

---

[1] – التحليل الدلالى ، ص ١ .

[2] – الجماهر فى معرفة الجواهر : ابى الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، ص ١٨١ ، ١٨٢ . عالم الكتب - بيروت - لبنان .

وأفضله المستنبط من بطن الأرض : ويكون ساطع البيــاض كثيـر المائية ، رزينا ، صُلبا، بحيث يقدح منه النارُ ، ويخدش كثيرا من الجواهر ، بخلاف الملتقط من ظاهر الأرض [1] .

وبهذا نجد أن البلور يتميز باللون الأبيض بالإضافة إلى كونــه مــن المعادن الثمينة .

٢- اللؤلؤ :

جوهرة من أثمن الجواهر ، ويعد اللؤلؤ الكبير المتقن الشكل من أثمن الأحجار الكريمة من حيث القيمة ، ويختلف اللؤلؤ عن بقية الجواهر الأخرى حيث تعد معظم الجواهر معادن تستخرج من المناجم تحت سطح الأرض ، إلاّ أن اللؤلؤ يتكون من أصداف المحار وتكون الجواهر المعدنية صلبة وتعكــس عادة الضوء ، بينما اللؤلؤ لين نوعاً ، ويمتص بعض الضوء ، كما أنّه يعكسه أيضاً [2] .

ويختلف اللؤلؤ من حيث لونــه ، فمنــه (النقــى البيــاض) ومنــه (الرصاصى) ومنه (العاجى) ، وصفرته غالباً فى حساب المرض له ، وإذا زاد وطال زمانه اسودّ [3] . وإلاّ أن البيرونى يرى أن اللؤلؤ الأصفر يفضــل الأبيض يقول : " والذى فيه صفرة يسيرة يفضل على الأبيض اليقق كفضــل الذهب على الفضة ، ولأن الدُرة النفيسة الناصعة البياض القريبة العهد بالبحر مما يلحقها كدر وتغيّر لا يزال يسرى فيها ويزداد إلى أن تسودّ كالبعرة – فإذا

---

[1] – نخب الذخائر فى أحوال الجواهر : لابن الأكفانى ، ص ٦٦ .

[2] – الموسوعة العربية ، جــ ٢١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

[3] – نخب الذخائر ، ص ٣٦ .

بدت فيها الصفرة اليسيرة المعروفة أمن منها ذلك الداء واستيقن أنّها لا تتغير على الأزمان [1] .

واللؤلؤ سريع التغيير لأنه حيوانى ، بخلاف الجواهر المعدنيـــة فـــإن أعمارنا لا تفى بتغيّر أكثرها – ويُثقب هذا الحَبُّ ، لأنّه يزداد بحُسن التـــأليف فى النظّم حسناً ورونقاً وقيمة [2] .

ومن أسمائه المشهورة عند العــرب : اللؤلــؤة ، الــدرّة ، النطفـــة ، والتومة ، والتوامية ، واللطيمية ، والصدفية ، والسفانة والجمانة ، والونيـــة ، والخريدة ، والحوصة ، والحضل [3] " .

إلاّ أنه لم يشتهر عند الشعراء من أســمائها غيــر اللؤلــؤ ، والـــدُّر والجمان، وكذك من ألوانها غير الأبيض النقى ، وهذا الذى قصده الشعراء فى وصف الثلج .

٣- الدُّر :

بالضم : اللؤلؤة العظيمة الكبيرة [4] ، إذا كثرت اســتدارتها وماؤهـــا ، وتسمى (نجما) وتباع بأغلى الأثمان [5] ، والدّر يغلب عليه اللون الأبيض مثل اللؤلؤ . واستخدمه الشعراء بكثرة فى وصف الثلج .

---

[1] – الجماهر ، ص ١١٧ .
[2] – نخب الذخائر ، ص ٣٧ .
[3] – الجماهر ، ص ١٠٧ .
[4] – المصباح المنير ، والقاموس المحيط ، (درر) .
[5] – انظر ، نخب الذخائر ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

٤- الفضة :

فلز أبيض لين ، وتعد من أوائل الفلزات التى استخدمها الناس ، حيث استخدمت للزينة والنقود من حوالى ٤٠٠٠ سنة ق.م ، وتصنع من الفضة أشياء جميلة منها المجوهرات وأدوات المائدة الجميلة ، والأوسمة والنياشين والعملات النقدية والمرايا [١] .

واسم الفضة بالعربية اللجين والصريف ونظن بالصيرفى أنّه منه ، فإن الصرّاف يزاول الصرف بين العين والوَرِق فى التفاضل بين النقود المختلفة – ويقال لها أيضاً : الصولج وكأنه صفة لها بالجودة ، فإنه يقال : فضة صولج وصولجة [٢] .

إلاّ أن الشعراء عند وصفهم للثلج لم يستخدموا إلاّ الفضة واللجين للدلالة على اللون الأبيض اللامع .

٥- المينا :

" نوع من الزجاج لكنه أرخى واثقل وله خلط يسميه مزاولوه أصلاً فمنهم من يركبه من المروة وهى الأحجار البيض الشديدة البياض التى تنقدح منها نار ، وتلتقط من الشعاب والأودية [٣] .

---

[١] – الموسوعة العربية ، جـ٧ ، ص ٣٦٦ .

[٢] – الجماهر ، ص ٢٤٢ .

[٣] – الجماهر ، ص ٢٢٤ .

والمينا تستعمل لتشكيل سطح أملس مصقول وبرّاق فوق الفلّزات ، وقد تأخذ ألواناً مختلفة لتزيين العديد من الأدوات بما فيها الأقداح والصحون والأطباق المعدنية [1] " .

المهم أن الشعراء استخدموا المينا فى وصفهم للثلج للونه الزجاجى الأبيض البرّاق . وهكذا وجدنا أن عناصر هذا المجال تتميز بلونها الأبيض بالإضافة إلى كونها من المعادن الثمينة .

ب- المجال الفرعى المتجانس الثانى :

ويشمل الأزهار ذات اللون الأبيض مثل : الآس – الأقحوان – الذريرة – الشقائق – الكافور – الياسمين .

١- الآس :

ويسمى الريحان الشامى ، شجيرة جذّابة دائمة الخضرة تنمو بريّا ، وللآس أوراق لامعة قاتمة الخضرة ، وأزهار بيضاء طيبة الرائحة ، وهو نبات بستانى مفضل ، خاصة فى المناطق ذات الشتاء المعتدل ، وكان نبات الآس ذا قيمة ثمينة لدى قدماء اليونان الذين استخدموه فى احتفالاتهم . وتستخدم أزهار الآس وثماره الغنية بالزيت فى صناعة العطور وفى صناعة الدواء[2] .

ويهمنا هنا أزهاره البيضاء ورائحته الطيبة .

---

[1] – الموسوعة العربية ، جـ٢٤ ، ص ٥١٤ .

[2] – الموسوعة العربية ، جـ١ ، ص ٥٧١ .

٢- الأقحوان :

نبات قصير ، شديد التحمل ، لا يتطلب عناية خاصة . وتتكون مجموعاته من زهور صغيرة بيضاء ، شبيهة بزهور الربيع ، وتظهر في أواخر الصيف ، وعندما تسحق أوراقه تظهر له رائحة قوية [١] .

٣- الذَّرِيرة :

وهي نبات قصب الطيب ، وهو قصب يؤتى به من الهند وأنبوبه مَحْشُوّ من شيء أبيض، ومسحوقه عَطِرٌ إلى الصفرةَ والبياض [٢] .

والشعراء عندما وصفوا الثلج به استخدموا مسحوقة الأبيض .

٤- شقائق النعمان :

واحد من أزهار الربيع التي تنمو في الغابات والسهول ، وتسمى أيضاً شقار نعمان .

وأكثر شقائق النعمان شيوعاً هي الأيكة بأزهارها البيضاء ، وشقائق النعمان مفضلة لكونها أزهار حديقة وأزهار قطف ، وتستنبت الأنواع الزرقاء والحمراء والأرجوانية وتنبت في فصل الربيع ، أما شقائق النعمان اليابانية الطويلة بأزهارها البيضاء فتزهر في الخريف [٣] .

وما يهمنا شقائق النعمان التي أزهارها بيضاء والتي استخدمها الشعراء في تصوير الثلج.

---

[١] – الموسوعة العربية ، جـ٢ ، ص ٤٢٠ .

[٢] – المصباح المنير ، مادة (ذرّ) .

[٣] – الموسوعة العربية ، جـ١١ ، ص ٢١٣ .

٥- الكافور :

أشجار الكافور طويلة السيقان ، بيضاء الأزهار ، خضراء الأوراق . وتستخرج منه مادة بتعريض قطع من خشب شجرة الكافور للبخـــار ، حيــث يتجمد الكافور على قطع الخشب مكوّنا طبقة زيتية الشكل ، وتجمع هذه المادة، ويستخلص الكافور منها فى شكل بلورات شبه شفافة تميل إلى اللون الأبـــيض بعد جمع المادة وعصرها وإزالة الماء والزيت منها [١] .

ولقد استخدم الشعراء من الكافور أزهاره البيضاء ومادتـــه البلوريـــة الشفافة .

٦- الياسمين :

نوع من الشجيرات المزهرة التى تنمو بصورة أساسية فى المنـــاطق المدارية ، وشبه المدارية ، وبعض شجيرات الياســـمين نافضـــة لأوراقهـــا ، وتفقدها فى فصل الشتاء من كل عام ، ونجد بعضها الآخر دائم الخضرة على مدار العام ، وقد تتسلق شجيرات الياسمين أو تنمو بصورة مستقيمة وتكـــون أزهارها بيضاء أو صفراء ، أو قرنفلية اللون ، وربما تكون ذات رائحة عبقة.

ويشبه الياسمين الأبيض الشائع نبات الكرمة بأوراقه الخضراء الداكنة وأزهاره البيضاء.

ويتميز الياسمين ذو الأزهار الشتوية بأزهار ناصعة اللون ولينة الشمع وتظهر قبل الأوراق [٢] .

---

[١] - الموسوعة العربية ، جــ١٩ ، ص ٦٧ .

[٢] - الموسوعة العربية ، جـــ ٢٧ ، ص ٢٨٤ .

والياسمين ذو اللون الأبيض الطيب الرائحة هو ما قصده الشعراء فى وصفهم للثلج .

وهكذا وجدنا أن عناصر هذا المجال تتميز باللون الأبيض وطيب الرائحة بالإضافة إلى كونها أزهار .

جـ- المجال الفرعى الثالث (غير المتجانس) :

حيث يضم عدة عناصر غير متجانسة ولكنها تجتمع تحت اللون الأبيض ، وقد استخدمها الشعراء فى وصفهم للثلج . وهى : الحَباب – البرس (القطن) – بيض الحمام – ثغور الملاح – الشيب – الغرّة – اللبن .

١- الحَباب :

جاء فى القاموس المحيط : حَبَاب الماء : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير [1] . وجاء فى المعجم الوسيط ، الحَباب : الأسنان المنضدة ، وكلها تجمع الجمال واللون الأبيض.

٢- البِرس :

بالكسر : القطن أو شبيهه [2] . وهىمادة بيضاء ناعمة [3] .

٣- البيض :

فى المصباح المنير ، باض الطائر ونحوه يبيض بيضاً ، فهو (بائض) والبيض له بمنزلة الولد للدّواب ، والبياض من الألوان ، وشىء أبيض ذو بياض .

---

[1] – القاموس المحيط : (حبّ) .

[2] – القاموس المحيط : (برس) .

[3] – المعجم الوسيط (قطن) .

وقد استخدم الشعراء بيض الحمام بالذات عند وصفهم للثلج لبياضه ودقته وصغر حجمه.

٤- الثغر :

فى المصباح المنير : الثغر : المبسم ثم أطلق على الثنايا وفى القاموس المحيط : الثغر: الفم أو الأسنان أو مقدّمها أو ما دامت فى منابتها [١] .

وقد استخدم الشعراء عند وصفهم للثلج ثغور الملاح ، ليضيفوا الجمال واللون الأبيض للأسنان .

٥- الشيب :

فى المصباح المنير : الشيب : هو ابيضاض الشعرّ المسوّد [٢] وفى القاموس المحيط : الشيب وبياضه [٣] .

وقد استخدم الشعراء الشيب فى وصفهم للثلج ، لأن الثلج يحول الأرض السوداء إلى بيضاء كما يحول الشيب الشعر الأسود إلى أبيض .

٦- الغرّة :

فى المصباح المنير : من الجبهة : بياض فوق الدرهم ، وفى القاموس المحيط : الأغرّ : الأبيض من كل شىء ، وبياض الجبهة [٤] .

---

[١] - مادة (ثغر) .
[٢] - المصباح المنير (شيب) .
[٣] - مادة (شاب) .
[٤] - مادة (غرر) .

٧- اللّبن :

فى المعجم الوسيط : اللبن : سائل أبيض يكون فى إنـــاث الآدميـــين والحيوان : وهو اسم جنس جمعى واحدته : لَبَنة ولبن كل شجرة ماؤها .

وهنا اهتم الشعراء بلون اللبن الأبيض .

وفى النهاية نجد هذا المجال تدور عناصره حـــول اللـــون الأبـــيض بالإضافة إلى أنها تلاقى قبولاً نفسياً عند الناس باستثناء الشيب الذى لا يجـــد قبولاً عند البعض ، وإن دل على الوقار عند آخرين .

وهكذا نجد الشعراء عندما وصفوا الثلج وصفوه بأشياء محببـــة إلـــى النفس بل وتتعشقها النفس وهذا يدل على منزلة الثلج عندهم وأنه يمثل قيمـــة جمالية بالإضافة إلى أنه يبعث الراحة والطمأنينة فى النفوس . فمـــن منـــا لا ينبهر بعقود الدر واللؤلؤ والفضة . من منا لا يتعشق الأزهار الجميلة طيبـــة الرائحة التى تملأ الجو طيباً وجمالاً . من منا لا يحس بالأمل والتفاؤل باللون الأبيض . إن اللون الأبيض قاسم مشترك بين كل هذه الأشياء مجتمعة وهـــو لون الثلج . وهذا اللون له دلالات طيبة عند العرب وغيرهم .

" ففى العصور القديمة كان اللون الأبيض مقدساً مكرساً لإله الرومان وكان يضحى له بحيوانات بيضاء . ولأن اللون الأبيض يرمز للصفاء والنقاوة فإن المسيح عادة ما يمثل فى ثوب أبيض ، ولعلّ معنى الصفاء والنقاوة هـــو المقصود فى اختيار اللون الأبيض عند المسلمين لباساً أثناء الحـــج والعمـــرة وكفناً للميت . واستخدم القرآن الكريم بياض الوجه يوم القيامة رمزاً للفوز فى

الآخرة نتيجة العمل الصالح فى الدنيا " [1] وذلك فى قوله تعالى : " يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه ... [2] " ، وقوله : " وأما الذين ابيضــت وجــوههم ففــى رحمة الله . [3] " وغيرها من الآيات الأخرى .

وجاءت دلالة اللون الأبيض عند العــرب كرمــز الطهــارة والنقــاء والصدق وهو يمثل " نعم " فى مقابل " لا " الموجودة فى الأسود ، إنه الصفحة البيضاء التى ستكتب عليها القصة ، إنه يمثل البداية فى مقابــل النهايــة [4] . وتوسعوا فى استخدام البياض فأطلقوه على الإشراق والإضاءة ووصفوا بــه ليالى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، ووصــفوا بــه الأرض إذا كانت ملساء ولا نبت فيها ، والجلد إذا كان بغير شعر ، كما استخدموا البياض فى مقام المدح بالكرم ونقاء العرض ، واستخدم بياض الوجه للإشــارة فــى صفائه وإشراقه [5] " .

كما استخدم العرب للدلالة على اللون الأبــيض عشــرات الكلمــات بصورة تكشف عن الدقة، وعن درجات اللون ، أو اختلاطه بغيره ، ومن ذلك الأزهر لمن كان بياضه عتيقاً نيِّراً حسناً . وهو أحسن البياض ، وقريب منــه الأغرّ والأقمر .. فإذا بولغ فى وصفه بالبياض قيل : أبيض يقق ... [6] " .

---

[1] – اللغة واللون : د. أحمد مختار عمر ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

[2] – آل عمران : ١٠٦ .

[3] – آل عمران : ١٠٧ .

[4] – اللغة واللون : ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

[5] – اللغة واللون ، ص ٤١ .

[6] – نفسه ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

وهكذا جرّنا الثلج إلى تلك الدلالات المريحة والممتعة التي رسمها الشعراء له ، حيث استمتع ناظرنا بحبات اللؤلؤ المنثورة وبعقود البلور والفضة ، كما تضوّع جونا بروائح الأقحوان والياسمين والآس ، وذرات الذّريرة والكافور . بالإضافة إلى لون أبيض ناصع يبعث على الأمل والتفاؤل كما رأينا . ألم يكن الثلج مدعاة للطمأنينة والاستقرار ؟

ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم برّد قلبى بالثلج [1] " .

ويقول : " اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد [2] " .

إنما خصهما بالذكر تأكيداً للطهارة ومبالغة فيها لأنهما ماءان مفطوران على خلقتهما لم يستعملا ولم تنلهما الأيدى ولم تخضهما الأرجل [3] .

كما قال صلى الله عليه وسلم مستخدماً لونه الأبيض فى التشبيه : " إن حوضى ... لَهُو أشدُ بياضاً من الثلج " [4] .

حقاً إن الثلجيات ظاهرة تثلج الصدر .

---

[1] - رواه الترمزى .

[2] - رواه البخارى .

[3] - لسان العرب مادة (ثلج) .

[4] - رواه مسلم .

المصادر والمراجع

١- **تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء .**

لأبى هلال بن المحسن الصابى ، تحقيق : عبد الستار فــراج – دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م .

٢- **التحليل الدلالى** : د. نصر الدين صالح سيد ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

٣- **التذكرة الفخرية .**

للصاحب بهاء الدين المنشئ الأربلى – تحقيق : د.نُورى حمود القيسى ود. حاتم صالح الضامن – مطبعة المجمع العلمى العراقى – ١٤٠٤هـــ – ١٩٨٤م .

٤- **التوفيق للتلفيق .**

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى – تحقيــق : هلال ناجى ود. زهير زاهد – عالم الكتب – بيروت – لبنان – الطبعة الولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .

٥- **الجماهر فى معرفة الجواهر :**

لأبى الريحان محمد بن أحمد البيرونى – عالم الكتــب – بيــروت – لبنان .

٦- **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى :** لآدم متز – تحقيق عبد الهادى أو ريدة .

٧- **خاص الخواص .**

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى – قدم له حسن الأمين منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان .

٨- **دمية القصر وعصرة أهل العصر .**
لأبى الحسن البخارزى – تحقيق د. سامى مكى العانى – دار العروبة للنشر الكويت – الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
٩- **الديارات :**
لأبى الحسن على بن محمد المعروف بالشابشتى – تحقيق : كوركيس عوّاد . دار الرائد العربى – بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
١٠- **ديوان الصنوبرى :**
أحمد محمد بن الحسن الضبى – تحقيق : د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م .
١١- **ديوان المعانى :**
لأبى هلال العسكرى – تحقيق : الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد محمود الشنقيطى – عالم الكتب – بيروت – لبنان .
١٢- **ديوان الميكالى :**
لبى الفضل عبيد الله بن أحمد على الميكالى – جمع وتحقيق جليل العطية ، عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
١٣- **رسوم دار الخلافة :**
لأبى الحسين هلال بن المحسن الصابى – تحقيق د. ميخائيل عواد – دار الرائد العربى – بيروت – لبنان .
١٤- **زهر الآداب :**
للحصرى القيروانى – تحقيق د. زكى مبارك .
١٥- **ظهر الإسلام** – أحمد أمين – دار النهضة المصرية – القاهرة .

١٦- **علم الدلالة** : كلود جرمان ، ريمون لوبلون ، ترجمة ، د. نور الهدى لوشن ، منشورات جامعة قار يونس – بنغازى – ليبيا – الطبعة الأولى : ١٩٩٧م .

١٧- **قطب السرور فى أوصاف الخمور :**

لأبى إسحاق إبراهيم المعروف بالرقيق النديم ، تحقيق : أحمد الجندى – مطبوعات مجمع اللغة العربية .

١٨- **كتاب الخراج (المنزلة الخامسة) :**

لأبى فرج قدامة بن جعفر – دراسة وتحقيق : د. طلال جميل رفاعى – مكتبة الطالب الجامعى – مكة المكرمة – الطبعة الـولى – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

١٩- **اللغة واللون** : د. أحمد مختار عمر – عالم الكتب ، الطبعة الثانية ١٩٩٧م .

٢٠- **معجم الآداب :**

لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٢١- **من غاب عنه المطرب :**

لأبى منصور الثعالبى – تحقيق : د. النبوى عبد الواحد شعلان ، مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م .

٢٢- **الموسوعة العربية العالمية –**

مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر – الرياض – السعودية – الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٢٣- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة :

للقاضى أبى على المُحسّن بن على التنوخى ، تحقيق : عبود الشالجى بدون ناشر – ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

٢٤- نخب الذخائر فى أحوال الجواهر :

محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى السنجارى ، المعروف بابن الأكفانى ، عالم الكتب – بيروت – لبنان .

٢٥- نهاية الأرب :

للنويرى – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر والطباعة – ١٩٦٣م .

٢٦- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر :

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى – دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٣/٤٤٦٨
الترقيم الدولي
977-5867-39-7